



الأحد 15 نوفمبر 2015 12:11 م

د. فتحي أبوالورد

صفحة فى تاريخ الأمة المسلمة سطرت بالدماء ، وحقبة من عمرها زيد لها فى البلاء ، تلکم الصفحة التى ظهر فيها الحجاج على مسرح الأحداث ، وتلکم الحقبة التى شهدت مولد الحجاج ومهلكه .  
كم دعت السنة بانقضاء أجله ، وكم ارتفعت أيدي إلى السماء تدعو بانتهاء عمره ، وطى صفحته ، وإسدال الستار على هذا المشهد المأساوى من مسرح الحياة السياسية والاجتماعية  
كان الحسن البصري لا يجلس مجلسا إلا ذكر فيه الحجاج ، ودعا عليه .

وكثيرا ما يقول المسلم فى تلقائية وعفوية ، عندما يأتيه نبأ وفاة مسلم ممن ظلم أو أفسد : أفضى لما قدم ، وهو الآن بين يدي ربه ، ولكن أن يبكى فرحا ، أو يسجد شكرا ، كبار العلماء بموت الحجاج ، فذاك الذى ينبئك عن عظم البلاء ، وشدة الضيق ، وحلقة الليل ، وسواد الحياة التى عاشها أهل ذلك الزمان .

قال حماد بن أبي سليمان: لما أخبرت إبراهيم النخعي بموت الحجاج بكى من الفرح  
ولما بشر الحسن البصري بموت الحجاج سجد شكرا لله تعالى، وكان مختفيا فظهر .  
وروى عبد الرزاق: أن طاووس لما أخبر بموت الحجاج قال: "فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين" . الأنعام: 45.

كان همه إرضاء الخليفة ، ولم يأبه لرضا الخالق ، وأسرف فى الظلم والقتل ، ونقض عرى الإسلام ، وحارب أولياء الله ، وانتهك الحرمات .  
وشهد فى شأنه الإمام الأوزاعي فقال : سمعت القاسم بن مخيمرة يقول: كان الحجاج ينقض عرى الإسلام . وقال عاصم بن أبى النجود:  
لم يبق لله حرمة إلا ارتكبتها الحجاج .

قاوم كثيرون من الأحرار الحجاج ، فاستقوى بجنده ، واستعلى بسيفه ، واستكبر فى الأرض بغير الحق ، فلم يقدرُوا على غلبته ؛ فلما كان ذلك فوض الجميع الأمر لصاحب الأمر ، واختفوا عن عينه ، ولاذوا بالهرب ، وسلطوا عليه سيف القدر ، وأطلقوا عليه سهام السحر .  
قال أبو عمرو بن العلاء: كنا هرابا من الحجاج بصنعاء، فسمعت منشدا، ينشد:  
ربما تكره النفوس من الأم\*\*\*ر ، له فرجة كحل العقال  
فاستظرفت قوله: "فرجة" ، فإنني لكذلك إذ سمعت قائلا يقول: مات الحجاج، فما أدري لأى الأمرين كنت أشد فرحا: بموت الحجاج أو بذلك البيت؟

وفى حربه ضد خصومه ، قتل العلماء فكان أبرزهم سعيد بن جبير ، وسجن العلماء وكان أبرزهم مجاهد ، وامتلأت السجون فى عهده بالرجال والنساء ، حتى قال الهيثم بن عدي: مات الحجاج، وفي سجنه ثمانون ألفا، منهم ثلاثون ألف امرأة  
الحجاج - على السجون - فى يوم جمعة، فسمع استغاثة، فقال: ما هذا؟ قيل: أهل السجون يقولون: قتلنا الحر، فقال: قولوا لهم: "اخسئوا فيها ولا تكلمون" المؤمنون: 108 .

وقد رأى بعض العلماء أن ظلمه ، وإسرافه فى سفك الدماء ، قد ألحقه بالملعونين ،  
روى ذلك الثوري عن منصور فقال: سألت إبراهيم النخعي عن الحجاج ، فقال: أليس الله يقول : "ألا لعنة الله على الظالمين" . هود: 18 .

لم يهتم بإصلاح ، ولم يعبأ بنهضة ، بل تناقص العمران فى عهده ، حتى شهد عليه الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز فقال: ما كان يصلح لدنيا ولا لآخرة ، ولي العراق وهو أوفر ما يكون من العمارة، فأخس به حتى صيره أربعين ألف ألف، ولقد أدى إلي فى عامي هذا ثمانون

مات الحجاج فقال بعض من حضره :  
ألا يا أيها الجسد المسجى \*\*\* لقد قرت بمصرعك العيون  
وكنت قرين شيطان رجيم \*\*\* فلما مت سلمك القرين  
ومن عجب أن تمتدحه إحدى جواربه وهي تنعیه ببعض مظالمه ، فتقول : ألا إن مطعم الطعام، وميتم الأيتام، ومرمل النساء، ومفلق  
الهام، وسيد أهل الشام قد مات، ثم أنشأت تقول:  
اليوم يرحمنا من كان يبغضنا \*\*\* واليوم يأمننا من كان يخشانا  
مات الحجاج ، بعد مرض كان يقول فيه : ما لي ولك يا ابن جبير؟  
مات الحجاج وترك رسالة لكل من يقتفى أثره عنوانها : مات الحجاج ، وسيموت كل حجاج .